أديبات:

أرسلت «باحثات» إلى عدد من الأديبات اللبنانيات
السؤال التالي: «لمن تكتبين»؟ وهنا الإجابات:

اميلي نصر الله

يضعني السؤال، دون لفّ أو مواربة، أمام مرآة الذات، حيث ينعكس وجهي، هو كذلك متسائلاً: لمن تكتبين؟

غريب، كيف لم يسبق لي أن وقفت أمام هذا السؤال، أو أعرته بعض اهتمام!

ربما طُرح عليّ مرّات، من بين أسئلة متعدّدة ومنوّعة، تطرحها الصحافة، وهي تحاول اكتشاف أعماقنا، نحن الكتّاب، وكأنها تَعبُر قارات غريبة، عجيبة ومجهولة. أو كأنها هذا المجهول منا هو «لغة» تستحق العناء؛ أعني عناء السؤال، والكشف والمعرفة.

لكن، أوَ لم نكن، نحن الساعين إلى ذلك؟

أوَ لم نقف في الساحات، ننادي، ونجمع من حولنا القرّاء؟... وبعضنا يُغريهم بتوقيع اسمه على ذيل الكتاب، أو في مطلعه، وكأنما لا يكفي الإسم المكبَّر على الغلاف!...

لعبة طريفة هذه التي تقوم بين الكاتب والقارىء... بينه وبين العالم الخارج عن ذاته... هل يشعر فعلاً، بأن هناك عالماً خارجاً عن ذاته؟.. ويستحق منه التفاتة عطف، أو التوجّه نحوه بالخطاب؟...

لماذا يدفعني هذا السؤال إلى مناطق السخرية والشكّ، وأنا لست بطبعي ساخرة، بل جدّية، رصينة، مثل أي فلاح اعتاد معاشرة الأرض وحسابات الفصول.

لمن أكتب؟

وكان مقدّراً لي أن لا أبلغ مرحلة أستطيع فيها التعبير كتابة... كان «فكّ الحرف» يكفي وزيادة.

وكانت جدتي تُضيف: «ولا بأس بكتابة الرسائل...» حتى إذا بلغت هذا الحدّ، ختمت كل

المعارف اللازمة. رحمة الله تتساقط على ثراك. يا جدّه!.. فقد كانت لك مصلحة شخصية وراء دفعي إلى تجاوز مرحلة «فكّ الحرف» وبلوغ مستوى «تحبير الرسائل». كانت فلذات قلبك وكبدك، في الغربة، وأنت لم تتعلّمي القراءة أو الكتابة، وإن كنتِ تسْطعين بالشعر، مثلما تسطع البدور بأنوارها؛ لذا أردتني، أنا حفيدتك أن أتابع طريق العلم، حتى أبلغ مرحلة «تحرير الرسائل».

لن يخدع أحدنا نفسه، فيعلن بأن المجتمع الزراعي، الريفي، يقدم على فعل بدون غاية. وفي التعلّم كانت الغاية محسوبة ومحسومة.

* * *

لكني خرجت على تلك الأعراف المقبولة، وحطمت القيود، وتجاوزت التقاليد التي عليها تربّيت أو رضعتها مع حليب الطفولة؛ فإني لم أعد أكتفي بكتابة الرسائل إلى المهاجرين الأحباء، تستعطفهم، وتذكّرهم بمن خلّفوا وراءهم في قيظ الانتظار... أو ليتحنّنوا، فيرسلوا للأهل من بعض فُتات المائدة ما يقي العائلة ذلّ العوز حين تشحّ المواسم، ولا تُقبل الأرض بوجه الرضى.

* * *

حين خرجت من القرية، وجئت بيروت، حملت ذلك كله في الوعي، واللاوعي. وحملت عناوين الصمت؛ والأفواه المختومة ظلّت تواكب الذاكرة.

نعم. كان ثقيلاً ذلك الإرث أُجرجره معي فوق أرصفة المدينة. وتتسابق الوجوه وهي تفتح ملفّات الذاكرة. وكان من الطبيعي، حين أزفت الساعة، وأخذتُ قلمي لأسجّل عملي الروائي الأول، أن أكتب عنهم، ولهم، ثم أقف في بعض المحطات التالية، وأستغفرهم لأني، ربما أخطأت، أو خنت الأمانة، أو أسأْتُ فهم كلمات همسوها همساً في أذني عند عشايا الرحيل.

بالدموع كتبت بعض فُصول من «طيور أيلول». لمن كُنتُ أكتب؟ وهل كان ذلك نوعاً من التطهير الذاتي؟

اليوم، حين أسمع أو أقرأ آراء النقاد، في رواية نُشرت قبل اثنتين وثلاثين سنة، ولم تفقد جاذبية الصبا الأول.. أحسُّ بأني لم أعد أكرّر تلك المواجهة في كتبي التالية، لا في طريقة الكتابة، ولا في الأسلوب.

* * *

ولكن: لمن كنت أكتب؟ وإلى من أتوجه الآن؟

في الحقيقة أشعر بأني، مهما تضاربت اراء النقّاد والباحثين، ومهما تنوّعت تفسيراتهم، فإني لنفسي أكتب، قبل كل شيء، وقبل أيّ شيء ـ وإن كنتُ لا أكتب عن نفسي فقط، لأن الوعي القابع في أعماق الذات، له سلطة تقوى عليّ، وشهوة لا تشبع ولا ترتوي. وهو يُلحُّ ويكرّر.

يوقظني من أعماق النوم، مثلما فعل «نمرود» برانية، في رواية «الرهينة» لأنه بات المنبّه الداخلي المُقْلِق. وأجدني حياله مطيعة، بل خاضعة برضى، وقبول.

وحتى عندما أبني الرواية أو القصّة حول مجتمع أو مكان، أكون أنا متكرّرة في مرايا الوجوه، أبحث باستمرار، عن الأفضل والأكمل؛ وربما حاولت السعي إلى ما يصعب بلوغه في هذه الحياة الدنيا، لذلك أُعيد المحاولة مرّة بعد مرّة، وسنة بعد سنة ورواية في إثر رواية.

حتى كتابات الحرب ـ حين وقعت الحرب، وتحوّلت نحوها الأقلام ـ كنت أكتبها لنفسي، بطريقة واعية عندما سجّلتُ وقائع الأحداث اليومية؛ أو لا واعية عندما اعتمدت القلم وسيلة علاج نفسي.

نعم، في زمن الحرب، باتت الكتابة خلاصاً روحياً وجسدياً؛ وقد مارستُها بل غرقت فيها، لأكتشف كم بوسع الكلمة أن تنقذنا من الدمار النهائي في الداخل.

إن عصب النرجسية هو أقوى الأعصاب في كياننا، نحن الكتّاب، وشهوة الكتابة، هي مثل شهوة البقاء، متغلّبة دائماً، وقلّما تبلغ حدّ الاكتفاء؛ إذ كلما تغذّت، توسّعت، وكبرت، وباتت تطلب المزيد.

لن أقارن نفسي بالغير، ولن أتحدث عن سواي من الكتاب، بل أحصر كلمتي في نطاق ما أكتب وما أحسّ به وأصبو إليه من وراء الكتاب.

إنه فعل من أفعال العشق الغريب، يقوم بيني وبين الكلمات. ندخل سوياً الغرف السرية، ونغوص في دهاليز لولا حفر الكلمات في الوعي، لبقيت مظلمة، ومطوية. وحين ندخل، أبصر كيف تُشعشع المصابيح، وتُضاء الأنوار في السراديب والأقبية، وكيف تتحوّل الكلمات إلى قناديل معلّقة، توزع الفرح، تنشر الانشراح، وتحرّر الجسد والروح معاً، من كل قيد وثقل.

وأنا، نفسي، عندما أدخل تلك الزوايا الحميمة، الخفية، لا أبقي ترابية، بل أحسّني صرت ملاكاً أو من طينة بعض المخلوقات الأثيرية. لذا أشتاق تكرار المحاولة. وإن حالي، مع تلك الزوايا المتوارية في أعماق الكيان، والتي كلما أمعنت فيها نبشاً، ازدادت احتجاباً ـ هي مثل أحوال العشق الصوفي، لهبته أبداً، مشتعلة، وحرقته لا ترتوي، ومداه بلا حدود. أما وجه الحبيب، في البحث الصوفي، فيمعن في التواري، كلما شعرت منه اقتراباً.

هكذا هي الكلمات، تمارس سحرها عليّ، وتجذبني، بجاذب أقوى من الإرادة، ويحملني، إلى مناطق تعجز أية إرادة عن بلوغها.